الأثر العربي

فى الثقافة الانجليزية فى القرون الوسطى

للأستاذ عبد العزيز أمين عبد المجيد

ليس من الممكن معالجة موضوع الأثر العربى فى الثقافة الانجليزية بتفصيل واستيعاب فى مقالة واحدة أو بضع مقالات . ولا من الممكن أيضاً ذكر الكثير من أسماء العلماء والمؤلفين والمترجمين الذين ساهموا بنصيب وافر فى نقل الثقافة العربية إلى دائرة الفكر الانجليزى أو الأدب الإنجليزى . ولذلك سأحاول معالجة هذا الموضوع فى ثلاث مقالات فقط : هذه المقالة وموضوعها « فى القرون الوسطى » . والمقالة الثانية وموضوعها « فى عصر النهضة » . والمقالة الأخيرة وموضوعها « فى القرنين الماضيين » . وستكون معالجتى إجمالية عامة

إن ما أعنيه بالأثر العربى هنا هو كل ما وصل إلى الثقافة الإنجليزية عن طريق اللغة العربية ، سواء أكان ذلك من إنتاج العرب أنفسهم أم من إنتاج غيرهم من الأمم التى ترجمت فلسفتها وعلومها وآدابها إلى اللغة العربية . وأعنى بالثقافة الإنجليزية ما أنتجته القريحة الإنجليزية من أدب وفلسفة وعلم وكتب حينئذ باللغة اللاتينية التى كانت لغة التأليف والآدب فى انجلترا وغيرها من ممالك أوربا فى القرون الوسطى

لعلنا نذكر أن بغداد كانت مقر الخلافة العباسية ، وأن خلفاء هذه الدولة قد انصرفوا بعد أن استتب لهم الحكم إلى تشجيع العلم والعلماء ، فازدهرت العلوم على اختلاف أنواعها ، وبدأ عصر جديد هو عصر الترجمة من اللغات الأجنبية كاليونانية والفارسية والهندية . وبلغ ذلك العصر أوجه فى أيام الرشيد والمأمون . ووجد فى اللغة العربية ما يسمى « بالعلوم الدخيلة » أى التى دخلت فى اللغة العربية من لغات أخرى ، كالطب والفلسفة والمنطق والفلك والرياضة . ويعزى أكثر الكتب التى ترجمت حينئذ إلى أرسطوطاليس وأفلاطون وبطليموس وأبقراط وأقليدس من علماء اليونان وفلاسفتهم . وكان أكثر المترجمين من غير العرب — كما نعلم — لأن العرب أصحاب السيادة كانوا منصرفين إذ ذاك إلى العناية بنظام الحكم والسياسة . ولأن من قاموا بالترجمة من السريان والنصارى واليهود كانوا على علم كاف بالعربية واللغات الأخرى المترجم عنها . ثم هذه العلوم الدخيلة وعكف على دراستها وترقيتها كثير من العلماء حتى أصبحت بغداد مركزاً للثقافة العربية فى الشرق

امتدت فتوح الإسلام إلى شمال أفريقيا وجزيرة صقلية وبلاد الأندلس ، ووطد العرب سلطانهم هناك ، وهاجر إلى تلك الممالك كثير من العلماء الذين تفقهوا فى العلوم الإسلامية والدخيلة ، ووجدوا من إكرام الخلفاء والأمراء لهم ما شجعهم على تنمية هذه العلوم ونشرها ، وأقبل العلماء والطلبة من المسلمين واليهود والمسيحيين على دراسة الفلسفة وعلوم الطب والرياضة والفلك وغيرها فى المعاهد الإسلامية والمكاتب العامة التى أسست فى طليطلة وقرطبة وغرناطة وأشبيلية حتى أصبحت هذه المدن الأندلسية مراكز للثقافة العربية فى الغرب كما كانت بغداد فى الشرق

وإذا عرفنا أن أثر أية لغة فى لغة أخرى إنما ينشأ عن الاتصال المباشر أو غير المباشر بين متكلمى هاتين اللغتين وجب أن نبحث عن : « متى وكيف وجد الاتصال بين العرب والانجليز فى القرون الوسطى » وهنا نجد أمامنا ميدانين اتصل فيهما العرب بالأوربيين عامة ومن بينهم الإنجليز . الميدان الأول هو الميدان الشرقى فى مصر وفلسطين والشام وآسيا الصغرى أيام الحروب الصليبية ؛ والميدان الثانى هو الميدان الغربى فى جزيرة صقلية وفى الأندلس . وفى كلا الميدانين كان تأثير العربية فى كافة الثقافات الأوربية ومن بينها الإنجليزية . وربما كانت انجلترا أقل الممالك تأثراً بالنفوذ العربى

بدأت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى وتوالت ست مرات حتى أوائل القرن الثالث عشر . واشتركت فى هذه الحروب الصليبية كل ممالك أوربا ، كما قاد هنرى الثانى ملك الإنجليز جنوده فى الحرب الصليبية الثالثة ضد العرب . وكانت هذه أول مرة فى التاريخ يلتقى فيها العرب والإنجليز وجهاً لوجه ، ويرى الإنجليز ما كان عليه العرب من حضارة وتفوق فى فن الحرب وتعبئة الجيوش وطرق الهجوم والدفاع . وكان لهذا الاتصال أثره المباشر فى أن نقل الإنجليز عن العرب نظم الحرب والتحصين ، ووسائل النقل ، واستعمال النقود وتوزيع الضرائب وصنع الزجاج . ويرجع علماء اللغة أن بعض الكلمات قد تسرب من العربية إلى لغة الإنجليز (أعنى اللاتينية) فى ذلك العصر . وذلك مثل كلمة Cotton القطن ، Sugar السكر ، Zarget الدرقة

Guide القائد ، وغير هذه الكلمات مما لا مجال لذكره الآن .
ولم يترك هذا الاتصال أثراً قوياً فى الأدب الإنجليزى لأنه كان اتصالاً حربياً ولم يكن اتصالاً علمياً

أما فى الميدان الغربى فإن جزيرة صقلية كانت تحت حكم الأغالبة من العرب من أوائل القرن العاشر إلى أواخر القرن الحادى عشر . وبعد سقوط هذه الجزيرة فى أيدى النرمانديين ظلت اللغة العربية لغة الكتابة والتأليف بجانب اللاتينية والإغريقية ، ولقى العلماء من المسلمين واليهود كل تشجيع وعطف من الملوك المسيحيين ، وبخاصة فردريك الثانى ملك صقلية الذى جمع بلاطه كثيراً من نخبة الفلاسفة والأطباء والمنجمين وعلماء الرياضة . وكذلك شجع الملك روجر الصقلى العلماء على التأليف والترجمة إلى اللغة اللاتينية ، إما من العربية ، وإما من الإغريقية . وكانت هناك علاقات صداقة قوية بين البلاط الانجليزى ، وبين بلاط الملك روجر الصقلى الذى عهد بمنصب ديوان الإنشاء فى بلاطه إلى انجليزى يسمى Robert of Selby وقد مهد هذا الانجليزى لكثير من العلماء الانجليز الإقامة فى بلاط الملك روجر والاتصال بعلماء العرب ، وترجمة بعض مؤلفاتهم ، ونقل بعض الثقافة العربية إلى ثقافتهم . وكذلك نجد انجليزياً آخر تشير إليه السجلات الصقلية العربية باسم « القائد برون » ، واسمه بالانجليزية Thomas Brown وقد شغل وظيفة القضاء فى البلاط الصقلى ، وعرف اللغة العربية ، ثم عاد بعد ذلك إلى انجلترا حيث اختاره الملك هنرى الثانى وزيراً للمالية سنة ١١٥٨م . وقد كان من نتيجة هذا الاتصال بين علماء الانجليز وعلماء العرب فى البلاط الصقلى أن أخذ الانجليز عن العرب طرق البحث الفلسفية ، وترجموا بعض الرسائل فى الفلك والرياضة.

أما فى الأندلس فإن تعاون المسلمين واليهود والمسيحيين فى البحث والتأليف ، وتسامح الولاة من المسلمين ، وازدهار الحركة العلمية والأدبية قد فتح الطريق أمام طلاب العلم من ممالك أوربا المختلفة فوفدوا إلى المعاهد الإسلامية الأندلسية للدراسة والترجمة إلى لغاتهم . ونذكر من بين هؤلاء ادلار الباجى الإنجليزى (Adlar of Bath) الذى سافر كثيراً فى الشام وفلسطين وصقلية ثم درس فى طليطلة ، وحين عاد إلى انجلترا أدهشه ما وجد عليه القوم من جهل بعلوم العرب وفلسفتهم (كما يقول هو) فأدخل فى الثقافة الإنجليزية والفلسفة طريقة التفكير الحر فى البحث . وكذلك ترجم من العربية رسالة فى الفلك اسمها «الأزياج» واستبقى كثيراً من الكلمات العربية فى ترجمته ، وألف كتاباً سماه «المسئلات الطبيعية » اعترف فيه بفضل الدراسة العربية ، وذكر فيه كروية الأرض ، وأن المادة لا تفنى ، وشرح أسباب الزلازل ، وكان يعتمد فى كل ما كتب على الأدلة العقلية أو التجربة .

ومن تلامذ من الإنجليز على العرب Robert of Chester فقد درس فى الأندلس وهو أول من ترجم القرآن من العربية إلى اللاتينية ، كما ترجم كثيراً من الكتب فى علم الجبر والكيمياء . ولا تزال هاتان الكلمتان فى الإنجليزية حتى الآن : Algebra و Chemistry وهناك أيضاً تلميذ آخر يسمى ألفرد الإنجليزى Alfred the Englishman درس فى الأندلس وترجم من العربية كتاب النباتات لارسطوطاليس .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ميخائيل الاسكتلندى Michael de Scott فقد زار صقلية ودرس فى طليطلة ثم ترجم من العربية رسالة فى علم الفلك لمؤلفها نور الدين أبى إسحاق البتروجى ، ونقل فلسفة ابن رشد ، وعلق على كتب ابن سينا وترجم من العربية كتاب الحيوان لأرسطوطاليس

وكذلك عرف الإنجليز طب العرب ، وكيفية استعمال الاسطرلاب ، واستبقوا فيه بعض الكلمات العربية كالمغرب ، والمرى ، والقنطرة ، كما اقتبسوا الطرق العربية فى الحساب

ولما كانت الفلسفة والعلوم والآداب فى القرون الوسطى قوية الارتباط بعضها ببعض تأثر الأدب الانجليزى مباشرة بكل ما ترجم من العربية إلى اللاتينية من فلسفة أو علم أو أدب . ويذكر علماء الأدب أن تشوسر الشاعر الانجليزى القديم اقتبس فى أشعاره بعض المعانى من كتاب اسمه (أمثال الفلاسفة) ، وكان قد ترجم هذا الكتاب أولاً من العربية إلى اللاتينية ثم ترجم بعد ذلك من اللاتينية إلى الإنجليزية ، وهو أول كتاب انجليزى طبع بمطبعة كاكستون . وكذلك كتب تشوسر رسالة فى الاسطرلاب اعتمد فيها على كتاب « الاسطرلاب » المؤلف العربى « ما شاء الله » وعلى كتاب للقبيسى اسمه « مقدمة فى علم الفلك » . وكتب أيضاً رسالة سماها « الخبز واللبن للأطفال » تجلت فيها الروح العربية

وقد ترجمت مجموعة من القصص العربية إلى اللاتينية ومن بين هذه القصص بعض حكايات من كتاب كليلة ودمنة ، وظهرت هذه القصص فى الآداب الأوربية عامة كما ظهرت فى الأدب